

## المحاضرة السادسة: النظريات المفسرة لنشأة الدولة

ان البحث عن أصل نشأة الدولة و تحديد وقت ظهورها يعد من الأمور العسيرة ، و مرد ذلك أن الدولة ظاهرة اجتماعية يعود أصلها إلى الحضارات القديمة و هي في تطورها تتفاعل مع الأوضاع السياسية و الاجتماعية الاقتصادية و الدينية السائدة ، و لهذا اختلف الفقهاء حول أصل نشأة الدولة و ظهر نتيجة هذا الخلاف عدة نظريات ، نتناول أربع نظريات أساسية و المتمثلة في : النظريات الدينية ، نظريات القوة و الغلبة، النظريات العقدية، و النظريات شبه العقدية.

### أولا : النظريات الدينية

يذهب أنصار هذه النظريات إلى القول بأن ظهور السلطة مرجعها إلى الله فهي حق من الحقوق التي يستأثر بها ، يمنحها لمن يشاء ومن ثم فإن الحاكم يستمد سلطته من الله مما يجعل إرادته تسمو و تعلو على إرادة المحكومين بفعل الصفات التي تميزه و التي جعلته يفوز بالسلطة دون غيره من أبناء مجتمعه و لقد لعبت هذه النظريات دورا كبيرا خاصة في العصور القديمة بدءا من العصر المسيحي و القرون الوسطى ، بل إن إشاراتها لم تختلف إلا في بداية القرن العشرين ، لكن التفسير الديني لنشأة الدولة اختلف على ثلاثة نظريات :

**1-نظرية تأليه الحاكم :** مضمون هذه النظرية أن الدولة من صنع الإله الذي هو نفسه الحاكم ، و قد كانت فكرة تأليه الحكام منتشرة في العديد من الحضارات ، أبرزها الحضارة المصرية القديمة ، حيث كان فرعون إله يعبد.

**2-نظرية التفويض الإلهي المباشر :** ترى هذه النظرية أن الحاكم ليس إله حتى تثبت له العبودية ، و لكن تثبت له الطاعة لأنه مختار من الله بشكل مباشر ، فهو خليفة الله في الأرض و بالتالي فمخالفة الحاكم تعني معصية الله ، عرفت هذه النظرية انتشارا واسعا في الممالك الأوروبية .

**3-نظرية التفويض الإلهي غير المباشر :** ترى هذه النظرية أن الله لا يمنح السلطة للحاكم بشكل مباشر إنما جعل الأحداث تتسلسل وفق نسق معين ، حتى يصير الشخص الذي تختاره العناية الإلهية حاكما من دون غيره و أن الله يمنح سيف السلطة الدينية وسيف السلطة الزمنية للبابا و هذا الأخير يمنح سيف السلطة الزمنية للحاكم ، انتشرت هذه النظرية في أوروبا بعد تراجع نظرية الحق الإلهي المباشر و زيادة سلطان الكنيسة في مواجهة نفوذ الملك.

**\*موقف الإسلام من هذه النظريات :**

الإسلام يرفض هذه النظريات بل حاربها بقوة إذ نجد القرآن الكريم يبين لنا في الكثير من الآيات أن الله سبحانه و تعالى أرسل الرسل لمحاربة الملوك و الحكام الذين ادعوا الألوهية مثل الفراعنة ، و بالنسبة للخلفاء الراشدين نجد أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبة توليه الخلافة " إني ولّيت عليكم و لست بخيركم " و هذا يعني أن الأفراد هم الذين ولوه السلطة.

## ثانيا : نظريات القوة و الغلبة

تعتمد هذه النظريات على التفوق و الغلبة كأساس لنشأة الدولة ، ذلك أن كل مجتمع مهما اختلفت درجة تنظيمه فلا بد أن تظهر فيه السلطة التي يتمتع بها أحد أفراده أو مجموعة منهم ، و هذا ما يعبر عنه ميكيافيلي بقوله " كل هيمنة أو سلطة مورست على الناس هي دول أو جمهوريات أو إمارات و السلطة تستمد من السيطرة و هي بدورها تفرض جبرا بالقوة"

و عليه تعتمد مجموعة من النظريات على التفوق لتفسير أصل نشأة الدولة ، لكنها لا تتفق على طبيعة هذا التفوق أو الغلبة فبعضها تعتمد القوة الجسدية و بعضها على القوة الاقتصادية أو المالية و بعضها على التفوق الفكري و البعض الآخر يجمع بينها كلها

**1-النظرية الماركسية:** ترى النظرية الماركسية أن الدولة تنتج بسبب الصراع الطبقي ، فالدولة تقوم على أساس اقتصادي ، حيث أن الدولة هي التي تهيمن على الاقتصاد و هي نتاج صراع بين طبقات المجتمع ، و هي تترجم الهيمنة الطبقيّة داخل المجتمع و تضمن استغلال طبقة ضد طبقة أخرى ، و القانون فيها عبارة عن تعبير لإرادة هذه الطبقة ، لكن هذه النظرية تحمل بذور فنائها حيث تزول بزوال الطبقيّة داخل الدولة.

**2-نظرية الزعامة لدى ابن خلدون :** لقد اعتمد ابن خلدون في نظريته هذه على العنف الذي يعتبر أحد ميزات الانسان التي يمكنه من خلالها البقاء و العيش ، و تركز نظرية ابن خلدون على أن الانسان اجتماعي بطبعه و لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن جماعته لكن لابد أن يكون هناك حاكم يتولى إدارة و تنظيم هذه الجماعة ، و أهم النقاط التي يركز عليها ابن خلدون لقيام الدولة العناصر التالية :

**أ-العصبية :** و هي عبارة عن الشعور بالانتماء المشترك بين أفراد المجتمع بالوحدة العرقية و الدينية و هو شعور يولد في الجماعة روح البروز نحو الغير.

**ب-الزعامة:** و هنا لابد أن يتولى إدارة هذه الجماعة شخص يمتاز بالصرامة و البطش حتى يحملهم على الطاعة .

**ج-العقيدة :** و تتجلى في ضرورة وجود عقيدة ( دين ) ، فهو العامل الأساسي في وحدة القبائل و الشعوب في مجموعة واحدة .

**3-نظرية التضامن الاجتماعي:** نادى بهذه النظرية الفقيه الفرنسي ليون ديغي عميد الفقهاء الفرنسيين الذي يتفق مع ابن خلدون على أن الانسان اجتماعي بطبعه و لا يستطيع العيش بعيدا عن أقرانه ، لكنه لا يتفق معه في كيفية نشوء الدولة ، فهو يرى أن الدولة تقوم على أربعة عناصر أساسية :

**أ-الاختيار الاجتماعي :** و تنشأ الدولة هنا بسبب فرض المجموعة القومية المهيمنة لإرادتها على الفئة الضعيفة ، و بالتالي تكون الأولى هي الهيئة الحاكمة أما الثانية فتكون هي المحكومة

**ب-التمايز أو الاختلاف السياسي :** أي ان الدولة تنشأ عندما تكون هناك فئتان ، فئة حاكمة و فئة محكومة تفرض سلطانها هلى الفئة المحكومة.

**ج-قوة الجبر و الإكراه:**السلطة تعد الدعامة الأساسية لقيام الدولة أي هي التي تعطي الأوامر و تهيمن على الفئة المحكومة دون أن تكون هناك سلطة تنافسها أو تمنعها من تنفيذ أوامرها.

**د-التضامن الاجتماعي :** إذ لابد من التلاحم و التكامل بين أفراد المجتمع الواحد و لابد أن يكون هناك تعاون بين الحكام و المحكومين .

### ثالثا : النظريات العقدية

هناك فقهاء يتبنون العقد كآلية نشأت من خلالها الدولة و هم كل من توماس هوبز، جون لوك ، و الفقيه الفرنسي جون جاك روسو و لكنهم في نفس الوقت يختلفون حول العديد من التفاصيل المتعلقة بالعقد .

### 1-نظرية العقد عند توماس هوبز (1588-1679)

جاءت هذه النظرية لتبرير سلطة الملك و ضد الثورات الشعبية إذ أن هوبز كان من مؤيدي العرش الحاكم ، و تشمل نظريته على العناصر التالية :

**\*المجتمع قبل العقد :** مجتمع فوضوي يغلب عليه قانون الغاب و الأنانية و الطمع و حب النفس لذلك أحس الأفراد بضرورة إقامة مجتمع منظم يخضعون له ، يحكمهم فيه حاكم يوفر لهم الاستقرار و الأمان

**\*أطراف العقد :** هم أفراد المجتمع الذين يتنازلون عن حقوقهم للحاكم الذي لم يكن طرفا في العقد.

**\*آثار العقد :** لا بد على الافراد أن يتنازلوا عن جميع حقوقهم لتفادي الاختلاف و التناحر التي يشرف عليها الحاكم الذي له السلطة المطلقة دون أن يكون مسؤولا أو ملتزما نحوهم بشيء لأنه لم يكن طرفا في العقد ، مما ينجر عنه استبداد الحاكم و بحسب هوبز استبداد الحاكم أفضل بكثير من الفوضى السابقة و لكنه يحمله مسؤولية توفير الرفاهية و احترام القوانين القضائية ، و قد أخط هوبز بين الحكومة و الدولة يعني أن بذور فناء الدولة في فناء العرش الحاكم.

## 2-نظرية العقد عند جون لوك (1632-1704)

هو من دعاة تقييد سلطة الحاكم و لا بد من احترام الحريات الفردية و تتلخص نظريته فيمايلي :

**\*المجتمع قبل العقد:** إن الانسان خير بطبعه يعيش في حالة سلام و حرية طبيعية و مساواة تامة وفقا للقانون الطبيعي إلا أنه يحتاج إلى النظام السياسي الذي يضمن له الحرية و احترام حقوقه و المحافظة على القيم .

**\*أطراف العقد:** أعضاء العقد هم المجتمع من جهة و الحاكم من جهة أخرى و العقد يتم عبر مرحلتين :

-المرحلة الأولى : اتفاق أفراد الجماعة على إنشاء مجتمع سياسي

-المرحلة الثانية : اتفاق الشعب السياسي و الحكومة التي تتولى الحكم.

**\*آثار العقد:** إن الافراد عند إبرامهم لهذا الاتفاق لم يتنازلوا عن كافة حقوقهم و إنما بالقدر الضروري لإقامة الدولة و تعيين السلطة بما يكفل حماية حقوق و حريات الأفراد ، و في مقابل تنازلهم الجزئي عن حرياتهم و حقوقهم فإن الحاكم مطالب بتسطير جهوده لتحقيق الصالح العام و احترام الحقوق الخاصة ، و في حالة إخلاله بهذه الالتزامات يعطي للطرف الآخر في العقد حق فصله ، و إن حاول المقاومة فإن استعمال القوة في مواجهته يصبح حقا مشروعا ، فالعقد عند جون لوك هو عقد جماعي يتحول بموجبه المجتمع من جماعة أشخاص إلى جماعة سياسية لإقامة حكومة تستمد سلطتها من موافقة الأغلبية.

## 3-نظرية العقد عند جون جاك روسو (1712-1778)

يرفض روسو إنشاء الدولة على القوة ، حيث تتلخص نظريته في : **\*المجتمع قبل العقد :** الانسان خير بطبعه يعيش في حالة سلام و حرية طبيعية و مساواة تامة وفقا للقانون

الطبيعي ، إلا أنه يحتاج دوماً إلى النظام السياسي الذي يضمن له الحرية و احترام حقوقه و المحافظة على القيم.

**\*أطراف العقد :** يتفق الافراد على انشاء نوع من الاتحاد في ما بينهم يحميهم و يحمي أملاكهم و يتمتع هذا الاتحاد بسلطة كل فرد من أفراد المجتمع ، أي أن كل فرد يلتزم نحو الجماعة الأخرى المتحدين ، وبذلك نجد أن الفرد يتعاقد من زاويتين :

-الزاوية الأولى: يتعاقد الفرد مع الشخص العام باعتباره عضو من الجماعة .

-الزاوية الثانية : يتعاقد الفرد مع الجماعة باعتبارها من مكونات الشخص العام

**\*أثار العقد :** يترتب عن هذا العقد مساواة الافراد في الحقوق و الحريات حيث تصبح الجماعة المستقلة عنهم تتمتع بالسيادة الكاملة و السلطة المطلقة كونها تعبر عن إرادة الأغلبية في المجتمع.

و كخلاصة لما سبق يبقى لنظرية العقد الاجتماعي الفضل في تقديم أساس ديموقراطي لقيام السلطة و القضاء على الاستبداد و اعتبار رضا المحكومين أساساً للخضوع لهذه السلطة لذلك قيل أن نظرية العقد الاجتماعي تعتبر أكبر أكذوبة سياسية حققت النجاح.

#### رابعاً : النظريات شبه العقدية

إن العقد هو فكرة أو مفهوم قانوني ، فالقانون هو الذي يحدد تعريفه و منهم أطرافه و شروط إبرامه و حالات بطلانه و غير ذلك إذا كان القانون هو من وضع الدولة فذلك يعني أن العقد لم يكن معروفاً قبل وجود الدولة ، و لذلك لا تصح تفسير أصل نشأة الدولة به ، مما يجعل الفقهاء يبحثون عن بديل للعقد ولكن في إطار اتفاقي و منهم " جلينيك" من خلال نظرية الوحدة و " موريس هوريو" بنظرية السلطة المؤسسه.

**1-نظرية الوحدة:** يرى الفقهاء و من بينهم الفقيه الألماني " جلينيك" أن اتفاق إرادتين يمكن أن يفضي إلى نوعين من العلاقات القانونية ( العقد و الفيرينبارنغ أي الاتحاد ) و الفرق الموجود بينهما هو أن العقد يرغب أطرافه من خلاله تحقيق مصالح مشتركة و مختلفة ، و غالباً ما يكون مقصد كل طرف مختلف عن الطرف الآخر في العقد ، و بالتالي لا يمكن للدولة أن تنشأ به، لأن انشاء الدولة يجب أن يكون على أساس اتجاه إرادات الأطراف إلى نفس الهدف زيادة على أن العقد ينشئ وضعية قانونية ذاتية و ليست موضوعية كالدولة التي لا تنشأ إلا بالفيرينبارنغ الذي يعتبر اجتماع مجموعة من الارادات لتحقيق هدف مشترك و هو إنشاء الدولة. لكن على ما يبدو أن جلينيك الذي قدم أداة لتفسير إنشاء بعض الكيانات و الجمعيات أو الأحزاب السياسية ، إلا أن ذلك لا ينفع مع إنشاء دولة ، إذ لم يدون

لنا التاريخ حالة واحدة اجتمع فيها الافراد ( الشعب) و أسسوا دولة ، إلا إذا استثنينا بعض اتحادات الدول ، كالإتحاد الفيدرالي الأمريكي و السويسري التي هي إنشاء للاتحاد و ليس من دول كانت موجودة ثم إنه لم يقدم أيضا الإطار القانوني الذي يستند إليه الفيرينبارنغ.

**2-نظرية السلطة المؤسسة:** يتزعم هذه النظرية الفقيه الفرنسي موريس هوريو ، و هو يرى بأن الدولة ماهي إلا جهاز اجتماعي مترابط يتشكل من مجموعة من الحكام و المحكومين ، يهدف إلى تحقيق النظام الاجتماعي و السياسي و أنها نشأت على مرحلتين :  
-المرحلة الأولى : كانت فيه الدولة مجرد مشروع أو فكرة صاغها مجموعة من الأفراد الذين يمثلون النخبة في المجتمع .

-المرحلة الثانية : يتم من خلالها عرض هذا المشروع على باقي أفراد المجتمع و دعوتهم لتحقيقه ، و بالتالي فإن النخبة التي تصوغ الفكرة الأولية للدولة هي السلطة المؤسسة ثم ينخرط فيها الشعب لتجسيدها إذا وافق على الفكرة ، و الملاحظ على فكر " موريس هوريو " أنها تصلح كثيرا لإنشاء الجمعيات و المؤسسات و لكنها لا تصلح لإنشاء مؤسسة المؤسسات التي هي الدول.

و إضافة إلى هذه النظريات توجد مجموعة أخرى من النظريات التي لا تقل أهمية على غرار نظرية النظام القانوني و النظرية النفسية و نظرية التطور العائلي و غيرها ، و كلها منتقدة إذ قد تصلح لتفسير نشأة بعض الدول و لكنها لا تصلح لتفسير كيفية ظهور كل الدول ، و تبقى نظرية التطور التاريخي هي الأقرب و الأرجح لأن أنصارها يرون أن نشأة الدولة كان نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل على مر التاريخ منها العوامل الدينية الاجتماعية الاقتصادية و الثقافية ، و قد يكون عامل واحد كافي لإنشائها كما قد يكون ذلك بتظافر جملة منها.